

كتابات المستشرقين في الدراسات الإسلامية بين الموضوعية والتحيز

Orientalist writings in Islamic studies between objectivity and bias

الدكتور : محمد البويسفي / جامعة القاضي عياض / المملكة المغربية .

bouyesfy@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/09/02

تاريخ القبول: 2019/07/23

تاريخ الإرسال: 2019/08/24

ملخص البحث

اهتم المستشرقون بالعالم الإسلامي في وقت مبكر، نتيجة الاحتكاك والتدافع الحضاري والعسكري والثقافي بين العالم العربي والعالم الغربي، في محاولة لفهم ثقافة وفكر وسلوك الإنسان الشرقي، فألف المستشرقون كما هائما من البحوث والدراسات حول الثقافة العربية والدين الإسلامي، لأهداف متعددة. فاستمت كتابتهم ومناهجهم بطابع خاص، مغاير في كثير من الأحيان عن ما هو مألوف لدينا في الشرق....

الكلمات المفتاحية: الاستشراق - الفكر الإسلامي - الشريعة - الشريعة - علوم القرآن.

ABSTRACT:

The writings of orientalist in Islamic studies between substance and prejudice orientalist were interested in the Islamic world at an early date, as a result of friction and scramble hadhari, military, cultural between the Arab world and the Western world, in an attempt to understand the culture and thought and human behaviour north-east, valve orientalist and wandered from research and studies of Arab culture and religion of Islam, of multiple goals. It has been writing them and their courses more special heterologous, often for what is familiar to us in ...

key words: Orientalism - sharia- Islamic thought - Arabic studies - the science of the Koran

مقدمة:

اهتم المستشرقون بالعالم الإسلامي في وقت مبكر، نتيجة الاحتكاك والتدافع الحضاري والعسكري والثقافي بين العالم العربي والعالم الغربي، في محاولة لفهم ثقافة وفكر وسلوك الإنسان الشرقي، فألف المستشرقون كما هائلا من البحوث والدراسات حول الثقافة العربية والدين الإسلامي لأهداف متعددة. فاستمت كتابتهم ومناهجهم بطابع خاص، مغاير في كثير من الأحيان عن ما هو مألوف لدينا في الشرق.

و بنى المستشرقون مناهج خاصة بهم في التعامل مع النصوص المؤسسة للفكر الإسلامي وخاصة النصوص الشرعية، مناهج تلي حاجاتهم وأغراضهم، وليست دائما موضوعية، وإنما فيها ما هو ذاتي وما هو موضوعي وما هو تاريخي وعقدي.. مما أنتج قراءة استشراقية للقرآن والسنة، فيها كثير من الخلط وكثير من التحامل وقليل من الموضوعية، هذه القراءة جعلت من القرآن كتاب أسطورة، وكلام بشر خضع لظروف تاريخية مؤثرة فيه، نازعة صفة القدسية عن هذا النص الشرعي. وجعلت من قضايا علوم القرآن، قضايا تاريخية تظهر تحمل العلماء المسلمين في إعطاء الشرعية لتصرفاتهم في النص والتشريع. انطلاقا من ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغات الأوروبية، ثم إلى مصادر القرآن الكريم، ومفهوم الوحي. وجمع القرآن وترتيبه وكتابته، ونقد النص القرآني ..

أولا: مصدر القرآن الكريم عند المستشرقين.

تعددت آراء المستشرقين وتنوعت حول مصدر القرآن الكريم، لكنها تصب في هدف واحد هو نزع صفة القدسية والربانية عن القرآن، فقالوا: أن القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم وأنه تلقاه عن الأولين، وأن محمدا كان عبقريا، وشخصية فذة، مما مكنه من كتابة القرآن وتأليفه وقالوا عن الوحي بأنه عبارة عن حدس يتم فيه الإدراك المباشر، وأنه عبارة عن الإشراق الذي يتم فيه



تحويل الأفكار من شخص لآخر، أو أنه عبارة عن مناجاة روح الخداع والحماسة الموجودة في عقل النبي وليست في السماء¹.

وهكذا ألقى المستشرقون صفة الربانية على القرآن الكريم، وأنه كتاب سماوي موحى به من عند الله تعالى، وزعموا أن القرآن مستمد من أعراف وعادات الجاهليين ودياناتهم، وذهبوا إلى أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - اقتبس الأفكار والقصص وغيرها من المواضيع القرآنية من الرسائل السماوية السابقة كاليهودية والنصرانية، ثم عمد إلى ضمها إلى القرآن الكريم، وادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم، أخذ القرآن، وأصول دينه وأخبار الأنبياء والمرسلين عن الراهب بُخيرا عندما لقيه في الشام، وعن ورقة بن نوفل، وعن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل في مكة المكرمة. فهذا المستشرق الإنجليزي المعاصر ويليام مونتجمري وات ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن ورقة بن نوفل في بداية الدعوة وتأثر بيهود المدينة حين هاجر إليها ومن ذلك قوله : (ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة ولا شك أن المقطع القرآني حين رده محمد قد ذكره بماهومدين به لورقة...ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمد قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة"².

وهذا الادعاء سببه هومنهج الأثر والتأثر، حيث أن الواقع الغربي ونشأة العلوم والمعارف في عصر النهضة الأوروبية، فجعلوا ذلك يسري على العالم الإسلامي، و"كون هذا المنهج قد طبق بصورة صارمة في يئتهم ذلك أن النهضة الأدبية الأوربية قد تأسست بناء على الحضارة اليونانية وما أنشئ مذهب فكري وديني جديد إلا ووجد له نظير في الحضارة اليونانية القديمة ومن خلال هذا الحكم تم تطبيق هذا المنهج على الفكر الإسلامي دون أدنى اكتراث بخصوصية الفكر الإسلامي ذي

¹ - آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي، الدكتور/إدريس حامد محمد، <https://islamhouse.com/ar/books/450166>

² - محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة : شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت، ص 93

الأصول والأسس الواضحة المؤسسة على معايير دينية وبيئية أصيلة مستمدة من القرآن والسنة النبوية¹.

ثانيا: النسخ عند المستشرقين .

يُعتبر النسخ في القرآن الكريم من القضايا التي جعلها المستشرقون مدخلا واسعا للطعن في القرآن الكريم، قال الشيخ الزرقاني في أهمية ومعرفة النسخ: "إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين قد اتخذوا من النسخ في الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة، طعنوا بها في صدر الدين الحنيف، ونالوا من قدسية القرآن الكريم، وقد أحكموا شركا شبهاتهم، واجتهدوا في ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين، فجحدا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا في هذا الجحود...²".

يُثير المستشرقون شبهات وتساؤلات حول نسخ القرآن، منها: أن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم، ولذا لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، فكيف يكون هناك نسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم؟ ويقولون: إن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهي، وهذا لا يكون في حق الله، كما يقولون: إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم يقع في روع المكلف بقاء هذا الحكم، وهذا توريط وتليبس على العبد. ثم يكملون هذه السلسلة بقولهم: إن الآية دليل على الحكم، فلونسخت دونه لأشعر ذلك بارتفاع الحكم، وهذا بدوره ملبس على المكلف، ويؤدي إلى توريطه في اعتقاد فاسد. ثم يحكمون هذه السلسلة من الأقوال الملبسة المشككة بقولهم: إن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم عبث لا يليق بالشارع الحكيم؛ لأنه من التصرفات التي لا تعقل لها فائدة . ونتيجة هذه الشبهة هي التشكيك في سلامة القرآن وقمامه وعصمته.

¹ - نقد الخطاب الاستشراقي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي، ط1 بيروت، 170/1 .

² - الزرقاني، محمد عبد العظيم، 1943م - مناهل العرفان في علوم القرآن. بدون طبعة، دار إحياء الكتب العربية، 70/2.

فهذا المستشرق "مونتجمري وات" في مؤلفه "محمد" حيث ذكر فيه «أن ثقة النبي بالوهمية الوحي المنزل عليه لم يمنعه من تنظيم هذا الوحي وترتيبه زيادة أوتقصانا. ونجد في القرآن، إشارة إلى أن الله قد أنسى نبيه بعض الآيات. وإن دراسة عميقة للنص القرآني لا تدع مجالا للشك في الاعتقاد بان هناك كلمات وجملا ومقاطع أضيفت إلى القرآن، ومن الطبيعي أن هذه الزيادات ليست من صنع محمد (صلى الله عليه وسلم)، ومن المؤكد أن لديه طريقة معينة للإصغاء إلى الوحي الذي يكشف له ما يفكر فيه، ولا يصح النص إلا بعد تلقيه الوحي الذي يصوبه".

وفي هذا الصدد يقول المستشرق رودنسون، ويعتبر من بين المستشرقين المعاصرين الذين اهتموا بالدراسات العربية الإسلامية، كتابه "محمد" - الذي اختير كنموذج للبحث حول الدراسات الاستشراقية للنسبة المحمدية، وقدم، فيه قراءة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم انطلاقاً من طابع العلاقة التي تربطه بمجتمعه القبلي¹، إلى تلك الآراء التي صرح بها، حيث قال: إن القرآن الموجود بين أيدينا قد تعرض إلى مراجعات عديدة، والتي حسب رأيه تبين أنها خضعت لدراسة قامت على وثائق مكتوبة، وأن هذا العمل قد أنجز تحت رعاية محمد، إن لم يكن قد قام به من تلقاء نفسه"، ثم يخرج في قوله باستنتاجين متباينين، فيعلن: "إن هذه المراجعات لم تكن خالية من الأخطاء والنتائج السيئة. فالله يعيد وحيه ويعدله... ولكن الله أجاب بأنه يملك الحرية المطلقة في فعل ما يشاء وتعديل رسالته كيفما يتغي. ألم تكن حكمة الله اقتضت مراعاة الضعف الذي يعتري البشر، فيخفف من الواجبات الملقة عليهم، وذلك بنسخها، وإحلال أحكام أخرى أخف منها لمصلحتهم؟"²، وفي نفس الاتجاه اتجه الركوب على النسخ للوصول إلى نزع القداسة عن القرآن الكريم، قال جون جلكريست وهو مستشرق معاصر من جنوب أفريقيا: "إن القرآن نفسه يعترف أن الله قد نسخ وألغى مقاطع مبكرة

¹ - جلول، فيصل. (2012). (الجندي المستعرب: سنوات مكسيم رودنسون في لبنان وسوريا (1940-1947). (ط.2). بيروت-لبنان: دار الفارابي .

² -انظر: <https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2010/02/18/189716.html>



أنزلت على محمد، يمكن للمرء أن يعتقد أن التسليم بهذه المسألة كافٍ للبرهنة على أن القرآن الحالي غير مكتمل. هذا بالفعل ما يعيه العلماء المسلمون الحديثون لذلك ينكرون نظرية النسخ"¹.

ثالثا: القراءات القرآنية والأحرف السبعة.

تقوم النظرة الاستشراقية إلى الدراسات القرآنية عموما على الطعن في القرآن الكريم، وذلك عبر إثارة الشكوك حوله، من حيث مصدره، وكيفية تلقيه وتلقيه، وتدوينه وأحرفه، ومضمونه ومعناه ... وفيما يخص القراءات القرآنية، والأحرف السبعة، فقد درسوها من جوانبها المتعددة بما فيها النقل التاريخي، والوضع اللغوي، والتأصيل الشرعي..، وسبيلهم إلى ذلك الشبهات والتلفيق والطعون.. يقول محمد خليفة حسن: "وعلى المستوى المنهجي تظهر أزمة الاستشراق في غياب الرؤية المنهجية للمستشرقين، وعدم وجود منهج واضح يمكن تسميته بالمنهج الاستشراقي"²، والتخفي وراء العلمية في مناهج البحث، ومن امتلك ناصية العلوم الإنسانية ومناهجها يقف على خبطهم وخططهم، وهوما بينه خليفة حسن أيضا بقوله: "ويعد التظاهر بالعلم وبالمنهجية العلمية من أكبر خيانات الاستشراق، وذلك لأن وضعه العلمي يشير إلى تستره خلف العلم والعقلانية واختفائه وراء ستار المنهجية العلمية لتحقيق غايات غير علمية"³.

حيث طعنوا في مصدر القراءات القرآنية وفي كونها تستند إلى الوحي، فطعنوا في الأحرف السبعة، وانتقلوا إلى الطعن في القراء أنفسهم. معتمدين في ذلك على مصادر غير معتمدة في البحث العلمي، وبنوا عليها أحكاما ونتائج غير سليمة وغير علمية، وهذا يدخل ضمن تحريف الفهم، بعدما عجزوا عن تحريف كلام الله تعالى، يقول خليفة أيضا: "وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلّمة"⁴.

¹ - Gilchrist, John, JAM' AL-QUR'AN, p 86، نقلا عن النسخ وعلاقته بجمع القرآن عند المستشرقين، مجلة دراسات
إستشراقية، ع 1

² - أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر ص: 423

³ - المرجع السابق: 392 باختصار.

⁴ - انظر: تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين، ص 6.

أ- القراءات القرآنية عند جولد زيهر

ومثال تعامل المستشرقين مع الأحرف السبعة هو جولد زيهر، وهو مستشرق يهودي مجري، ولد في سنة 1850م في بلاد المجر وهلك فيها عام 1921م، ويعتبر من أبرز محرري دائرة المعارف الإسلامية¹، ويعتبر أيضا من المستشرقين السباقين لدراسة موضوع القراءات القرآنية وذلك في كتابه المشهور "مذاهب التفسير الإسلامي"، تحدث فيه عن المراحل الأولى للتفسير واختلاف القراءات فطعن فيها، وفي الأحرف السبعة ومصحف عثمان رضي الله عنه، وادعى أن سبب الاختلاف في القراءات القرآنية هو خلل الخط من النقط والشكل، وأن المحاولات التي قام بها الخليفة عثمان بن عفان كانت بدافع سياسي²، وهذا ما حدا بالعلماء والباحثين المسلمين للرد عليه وتتبع أخطائه وشبهه، فقال في شأنه والرد عليه الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي: "وقد دفعني إلى معالجة هذا الموضوع رأي قرأته للعالم المستشرق إجنس جولد زيهر في كتابه "مذاهب التفسير الإسلامي" مفاده أن الخط العربي الذي كُتبت به المصاحف لخلوه من النقط والشكل كان سببا في اختلاف القراءات، وقد أدى ذلك إلى اختلافات نحوية ومعنوية أيضا...، قرأت ما قال جولد زيهر وتدبرته فإذا بي أراه يهدم النقل عن الأئمة القراء، وينكر صلة هذه القراءات بالسند عن الرسول "عليه الصلاة والسلام"، ومعنى ذلك: أن ما كان من هذه القراءات متصلا بخصوصية الخط العربي - وهو كثير - ليس مما نزل به جبريل على قلب الرسول، وليس من الأحرف السبعة التي نص الرسول في صحيح ما روي عنه أن كلها شاف كاف، ومعنى ذلك أيضا: إنكار هذا القرآن في الجملة والتفصيل، ثم إنكار ما دار حول نصه الكريم من ثقافات متعددة الألوان، وفي ذلك من الخطورة ما فيه"³ حيث جعل الاختلاف في القراءات كان عن هوى من القراء، لا عن توقيف ورواية، بهدف التشكيك في القراءات وإثبات أنها من محض الرأي لا النقل. حيث وصف حديث الأحرف السبعة بالشذوذ وعدم الإسناد، فقال

1 - انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف بمصر، 1964م، 2/ 902

2 - انظر: مذاهب التفسير الإسلامي، كولد تريهر، ص 6

3 - رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات، عبد الفتاح إسماعيل شلبي. مكتبة نهضة مصر، 1960م ص 3.

جولدزهر عن حديث: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه"¹ ما يلي: "روي في مجاميع السنة المعتد بها، على الرغم من أن ثقة مثل أبي عبيد القاسم بن سلام دمجها بأنه شاذ غير مسند"².

يهدف جولد زهر إلى تعليل تعدد القراءات بأسباب غريبة، من بينها: الخط بقوله: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي"³ والإضافة التفسيرية: "وطائفة أخرى من القراءات الظاهرة في هذه الدائرة تنشأ من إضافة زيادات تفسيرية، حيث يستعان أحياناً على إزالة غموض في النص بإضافة تمييز أدق، يحدد المعنى المبهم، ودفعاً لاضطراب التأويل"⁴، أو بتحريف القراء للنص القرآني: "وهنا أراد بعض القراء استبعاد هذا التخوف بتغيير يسير في النص"⁵.

ونقل عنه صاحب تاريخ القرآن منهجه المخالف لما عليه المنهج العلمي الرصيد كما لدى العلماء المسلمين الراسخين في العلم بقوله: "عالج غولد زهر كتابات ابن مسعود وقراءاته وكافة قراءات القرآن من منظور الاختلاف عن نص القرآن الحقيقي، وتوجد في الواقع حالات كثيرة في الكتابات والقراءات المنسوبة لابن مسعود غير فيها النص العثماني خطأ، وأعلى الأقل يظهر فيها دافع للاختلاف عن النص العثماني، أي أن نص ابن مسعود يصبح نصاً ثانوياً، والدوافع الأهم، وإن لم تكن الأقوى، تشمل ما أبرزه جولد زهر من إزالة المخالفات من حيث المحتوى أو الإيضاح الموضوعي أو التوضيح اللغوي للنص"⁶.

أما فيما يخص طريقة ثبوت القراءات القرآنية فيدعي غولد زهر أن كثرة قراءات الصحابة واختياراتهم الشخصية جعلت القرآن في صورة من الاضطراب وعدم الثبات، وأن الحرية الفردية التي كانت سائدة عند الصحابة رضي الله عنه، هي التي أعطت هذا التعدد في القراءات، وأن المعول عليه

¹ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، رقم الحديث 4706.

² - مذاهب التفسير الإسلامي، ص 54.

³ - مذاهب التفسير الإسلامي: ص 8.

⁴ - المرجع السابق، ص 15-16، 21.

⁵ - المرجع السابق، ص 32.

⁶ - تاريخ القرآن. 518/3.

كان هو المعنى لا اللفظ، فجاء عثمان رضي الله عنه فجمع القرآن، ليحد من هذه الحرية الفردية التي كانت سائدة في تلاوة القرآن الكريم. حيث يقول: "فيما يتعلق بإقامة النص المقدس في الإسلام الأول، كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية كأنما كان سواء لدى الناس أن يرووا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية.. فالمعول إذاً في المرتبة الأولى على المعنى الذي يستبطنه النص، لا على الاحتفاظ المتناهي في الدقة بقراءة معينة. وهو رأي انتهى – فيما يتعلق بتلاوة القرآن في مراسيم العبادة – إلى القول بجواز قراءة النص المطابق للمعنى وإن لم يطابق حرفية اللفظ (القراءة بالمعنى)"¹.

وهذا التشنيع على الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ليس في محله، ويدل على جهل بالتاريخ الإسلامي، وبالظروف المحيطة بعملية الجمع التي قام بها عثمان رضي الله عنه، لأن هذا الجمع كان يهدف يستهدف أمرين، كما قال الشيخ عبد الله دراز: " أولهما: أن في إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون ولها أصل نبوي مجمع عليه وحمايتها، فيه منع لوقوع أي شجار بين المسلمين بشأنها. لأن عثمان كان يعتبر التماري في القرآن نوعاً من الكفر. ثانيهما: باستبعاد ما لا يتطابق تطابقاً مطلقاً مع النص الأصلي، وقاية للمسلمين من الوقوع في انشقاق خطير فيما بينهم، وحماية للنص ذاته من أي تحريف"².

وفي نفس الاتجاه ونفس المنحى سار المستشرق آرثر جفري جعل هذه الحرية في القراءة شكلت تطوراً في القراءات القرآنية مما أنتج تغييراً وتحويراً في النص القرآني، حيث صرح بقوله: "نشر في أيامنا هذه علماء الشرق كثيراً مما يتعلق بتفسير القرآن وإعجازه وأحكامه، ولكنهم إلى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور في قراءاته، ولا ندري على التحقيق لماذا كفوا عن هذا البحث، في عصر له نزعة

¹ - مذاهب التفسير الإسلامي، غولد زيهر: ص 49، 48، 51،

² - مدخل إلى القرآن الكريم، ص 43.

خاصة في التنقيب عن تطور الكتب المقدسة القديمة، وعما حصل لها من التغيير والتحوير ونجاح بعض الكتاب فيها"¹.

ومن يقرأ تاريخ القراءات القرآنية، وتعامل الصحابة رضي الله عنهم، معها يدرك أنهم كانوا وقافين عند النقل والسماع، ولم يملكو أن يقدموا بين يدي كلام الله تعالى شيئاً من رأيهم، أو كلامهم "وحاشا الصحابة والتابعين أن يقولوا في القرآن برأي، مجرد رأي، دون سند مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فما بالناس باقتحامهم أنهم عبثوا بالنص القرآني، إضافة وتقويماً وتوجيهاً إلى أغراضهم العقائدية"².

وكان هدف جولد زيهر، وغيره من المستشرقين، من كلامه هذا هو الطعن في حصانة القرآن الكريم، وفي سلامته من التحريم، ليلحقه بالكتب السماوية التي طالها التحريف، فتكون جميعها سواء في التحريف، ونفي وبالتالي القداسة عنها، فقال: "أما أن مثل هذه الحرية، التي لا تشجع الإيمان الثابت بحصانة نص الوحي المقدس... إلخ"³.

ب- القراءات القرآنية عند نولدكه

وهو تيودور نولدكه Noldeke Theodor، مؤرخ وعالم لغة ألماني، يُعد من أهم المستشرقين الألمان في القرن العشرين، درس نولدكه في جامعة غوتنغن وتعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية، نال درجة الدكتوراه عن رسالته «أصل وتركيب سور القرآن» فنال عليها جائزة مجمع البحوث والآداب في باريس. كان نولدكه في زمنه شيخ المستشرقين من دون منازع، تتلمذ على يده العديد من علماء الاستشراق كزاحا وويغوب و بروكلمان⁴.

¹ - المستشرقون والقرآن الكريم، د. محمد أمين حسن بني عامر، ص 305-306.

² - تاريخ القرآن، د. عبد الصور شاهين، ص 96-97.

³ - المرجع السابق، ص 52.

⁴ - انظر الموسوعة العربية، البحوث/ نولدكه تيودور <http://www.arab-ency.com/ar/>

وقد عالج نولدكه القراءات القرآنية معالجة خاصة، حيث عمد إلى تغيير معنى مصطلح القراءة، وحمله ما لا يحتمل، فنفى أن تكون كلمة "قرأ" نشأت عند العرب، لأنه كلمة حضارية، ولأن العرب أمة أمية، ونبيها صلى الله عليه وسلم أمي، وقال بأنها انتقلت إلى بلاد العرب من شمال الجزيرة وعليه بنى معنى جديد لمصطلح "القراءة" هو معنى " نادى " لأنه هو المعنى الأصلي للكلمة في اللغة العبرية، وفسر كلمة "اقرأ" في سورة العلق بمعنى: "عظ"¹. وقام بتغيير مصطلح مصحف عثمان ومصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أبي بن كعب، بمصطلحات جديدة، هي: "نص عثمان" و"نص ابن سعود" و"نص أبي"².

وتعامل مع القراءات الشاذة بطريقة شاذة أيضا، حيث قرر أن مفهوم الشاذ هو ما كان نسبيا غير مطلق، ولا يكتمل معناه إلا بإضافته إلى لاحقه، وجعل الخلاف في كون الشاذ هل يقتصر على القراءات السبع أم العشر أو غيرها، حيث قال: "الشاذ هو الآن كل ما كان خارج القراءات المشهورة المعترف بها، والخلاف هو عما إذا كان هذا الشاذ يقتصر على القراءات السبعة أو العشرة أو يزيد عنها"³، والصواب في ذلك ما نقله أهل العلم، أهل الشأن أن القراءة الشاذة ما اختل فيها أحد أركان القراءة الصحيحة وهي صحة السند، وموافقة العربية، وموافقة المصحف العثماني، قال ابن الجزري رحمه الله تعالى: "كل قراءة وافقت العربية ولوبوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عن أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف"⁴.

¹ - تاريخ القرآن لنولدكه ص 31-32

² - المصدر السابق 537/3-538.

³ - تاريخ القرآن، 589/1

⁴ - النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت. 9/1

كما جعل القراءات قائمة لم تمت ولا زالت حية، إلا انها غير مستعملة، وأنها موجودة في كتب التفاسير لمن أراد الرجوع إليها، فقال: " وقد استمر وجودها في التفسير بلا حدود كموروث قابل للنقاش"¹، وهذه طريقة منه للتشويش على القرآن الكريم، بمحاولة إحياء القراءات الشاذة من جديد، والدعوة إلى الرجوع إليها وبعثها، بعدما أعدمها العلماء المسلمون، وانتهى أمرها إلى الأبد. وهذا ديدان المستشرقين في الدراسات القرآنية، والموجه لهم في ذلك هو الدافع الأول إلى الدراسات والأبحاث الاستشراقية هو الحقد على الدين الإسلامي، وعلى كتابه الأول ألا وهو القرآن الكريم، وبعد استحالة تحريفه لقوله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"²، لجؤوا إلى محاولة تحريف علومه وتحريف فهمه.

رابعا: ترجمة القرآن عند المستشرقين.

قدم المستشرقون ترجمات للقرآن الكريم. وأثارت هذه الترجمات نقاشات علمية لدى المسلمين خاصة أن عملية ترجمة القرآن الكريم صعبة، نظرا لصعوبة نقل المعاني القرآنية بنفس الدقة التي جاءت بها اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، إلى اللغات الأخرى. فيمكن ترجمة ألفاظ القرآن وكلماته حرفياً، لكن يصعب ترجمة ما تحمله هذه الكلمات من معان ومدلولات تمثل روح القرآن وسر بلاغته وإعجازه. لأن أسلوب القرآن الكريم مميز في بيانه وإعجازه، ما يجعل عملية ترجمته إلى لغة أخرى عملية في غاية الصعوبة؛ لاستحالة نقل المميزات البلاغية والبيانية للقرآن الكريم من الوعاء اللغوي الذي نزل به، إلى وعاء لغوي آخر. وينضاف إلى ما سبق مؤهلات المترجم اللغوية والمعرفية، ثم الهدف والمقصد من الترجمة، فلكي ينقل المترجم معاني القرآن على الوجه الصحيح، لابد من فهم البيئة التي نزل فيها القرآن، وأسباب نزول الآيات والسياقات التي نزلت فيها، إضافة إلى فهم الخصائص البلاغية والبيانية للغة العربية.

أما ترجمات المستشرقين للقرآن الكريم ففيها الغث والسمين، وتداخل فيها ما هو ذاتي بما هو موضوعي، حيث نجد زخما كبيرا من ترجمات القرآن الكريم إلى عدة لغات غربية، والمجهود الكبير

¹ - تاريخ القرآن، 655/3

² - الحجر 9

اللغوي والمعرفي المبذول في التعريف بالقرآن وتبليغه لشريحة واسعة من الناس، وهذا ولا شك إنجاز معرفي مهم، لكن عند التدقيق والتمحيص نجد هناك أخطاء وزلات منها ما هو معرفي لغوي، ومنها ما هو إيديولوجي عقدي. فنجد في هذا العنصر الأخير ترجمة استشراقية للقرآن الكريم، فيها كثير من الخلط، وكثير من التحامل، وقليل من الموضوعية، لأسباب تاريخية ودينية وحضارية.

وتشترك ترجمة المستشرقين للقرآن الكريم في مجموعة مميزات وخصائص، رغم اختلافها في تفاوت هذه الصفات، بين أكثر ومقل..، ولعل السياق الحضاري وتاريخ علاقة بين الشرق والغرب بما فيها الحروب الصليبية، أثر بشكل كبير على هذه الترجمات وجعلها تتفق على مجموعة خصائص ومميزات، من حيث المنطلقات والأهداف والنتائج المتوصل إليها. ويمكن أن نحمل هذه المميزات فيما يلي:

- السطحية وعدم التعمق والالتزام بالمعاني المعجمية للألفاظ القرآنية، وتضمن كثير من هذه الترجمات مغالطات كثيرة .

- استعمال الترجمة باعتبار المعاني المفردة، دون النظر إلى المعنى الترتيبي للآيات، ولا سياقها، وتعتمد تشويه المعنى الأصلي، وقلب الحقائق.

- عدم الاعتناء ببيان ما في الآيات من معاني بديعة ومجازية؛ ما أفقد الترجمات عنصر الجلب والتأثير على القارئ .

- عدم الاعتناء بأسباب النزول، ولا بعدد الآيات؛ فقد تُدمج آيات، أو تقطع الآي وكذلك ابتدع بعض المستشرقين طرقا خاصة بهم في ترتيب السور، فرتبها بعضهم حسب تاريخ النزول، ورتبها بعضهم حسب الإيقاع الموسيقي .

- عدم التعرض لبعض الأدوات الضرورية التي تساعد على فهم الآيات القرآنية كالنصوص الحديثة.

- ظهور أثر ديانة المترجم ومستواه المعرفي والثقافي والحضاري على الترجمة؛ ما يجعلها تتصف بعدم الاتساق أو الحيادية، ويظهر هذا في إخفاء معظمها- أو التلاعب بالآيات التي تدين عقيدة الثالوت أو تأليه السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام¹.

خامسا: أسباب الخطأ عند المستشرقين

وما أوقع المستشرقين في هذا الخلط هو منهجهم الذي اعتمدوه في دراسة القرآن الكريم وعلومه وهذا المنهج هو المنهج الإسقاطي، عندما حاولوا إسقاط التاريخ الأوروبي، على التاريخ الإسلامي وخاصة تاريخ نقد الكتب المقدسة، ومنهج دراستها ونقدها، قصد بيان اضطرابها وتهافتها، وقد أفلحوا في ذلك بالنسبة للكتب المقدسة لديهم، لأنها محرفة أصلا، فعمدوا إلى إسقاط هذه المناهج النقدية على القرآن الكريم، وحاولوا اصطحاب النتائج التي المتوصل إليها هناك، وتلفيقها إلى القرآن الكريم وعلومه هنا، لأن القرآن محفوظ من عند الله تعالى، وهو أصح كتاب سماوي بين أيدي الناس اليوم، فالقياس باطل لوجود الفارق، كما يقول العلماء، وهذا ما أوقعهم في تمحل وتلفيق مفضوح أمام العلماء المسلمين الذين تتبعوا هذه الأخطاء والشبهات، وكشفوا عوراتها. قال الشيخ عبد الله دراز: "يبدو أن المبشر الإنجليزي آرثر جفري قد وقع تحت تأثير التاريخ المسيحي الذي ألف دراسته، إلى درجة أنه يكاد يكون قد نقله بأحداثه الكاملة أثناء بحثه في المجال الإسلامي. فالواقع أنه يحاول أن يثبت أن النص القرآني قد مر بأطوار تشبه من جوانب كثيرة ما مر به الإنجيل"².

ينضاف إلى ذلك من أسباب الخطأ والابتعاد عن الحق ومجانبتها لدى المستشرقين، هو النية المسبقة التي دخلوا بها في دراسة وبحث القرآن الكريم وعلومه، وهي نية الطعن وتشويه صورة الإسلام وما يوجد في صدورهم من حقد على الإسلام والمسلمين، والسياق الذي ظهر فيه الاستشراق هو سياق الصراع بين الشرق والغرب، وأن الاستشراق هو في حد ذاته هو تجلي من تجليات هذا الصراع

¹ - انظر: مكر المستشرقين في ترجمة الكتاب المبين، علاء إبراهيم عبد الرحيم، مركز سلف للبحوث والدراسات، ص 17-18
² - مدخل إلى القرآن الكريم، ص 45.

والتدافع بين الشرق والغرب، بين العالم الإسلامي، وبين الغرب المسيحي اليهودي. ثم الضعف اللغوي والجهل باللسان العربي، والذوق العربي.

هذه الأشياء صرفتهم عن الحق وأبعدتهم عن الموضوعية، وجعلتهم يتبعون كل ما من شأنه أن ينال من الإسلام، فيضخمونه ويبرزونه، ويخفون الوجه اللامع في الإسلام وفي التاريخ الإسلامي، وقد شهد بهذا شاهد من أهلهم، وهو المستشرق الألماني رودى باريت، والذي عمل أستاذاً للإسلاميات والساميات في جامعة بون، ثم في جامعة توبنجن¹ حيث قال: "حقيقةً، إنّ العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرّفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع. ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما كانت تصطدم بحكم سابق، يتمثل في أنّ هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير"². حتى وصل الأمر ببعضهم أن وصف القرآن الكريم بأنه: "من ألد أعداء الحضارة والحرية والحق الذين عرّفهم العالم حتى الآن"³.

سادساً: آثار تحيز المستشرقين على الثقافة الإسلامية .

يقول الفيلسوف التونسي أبو يعرب المرزوقي: في كتاب مدخل عام ضمن كتاب الترجمة ونظرياتهما: بأن الترجمة "سلاح معرفي فعال لمحو الخصم، أو للغلبة عليه، أول منعه من الغلبة علينا، أو للحفاظ المجرد على الذات"⁴. هذا المقولة صادقة وتصدق على أعمال المستشرقين في إنتاجاتهم وترجماتهم للقرآن الكريم، فقد انطلق الاستشراق كما هو معلوم من خلفية عقديّة وحملّة فكرية سابقة عن الإسلام ومصادره وتراثه، وهذه الخلفية هي التي تحكمت ووجهت ترجمات المستشرقين للقرآن الكريم، فانكب المستشرقون على دراسة الثقافة الإسلامية خاصة مصدريه القرآن والسنة النبوية وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بهدف محاصرة انتشار الإسلام من خلال تشويه صورته والظعن في

¹- موسوعة المستشرقين ص 62-63.

²- نقلاً عن: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل ص 28-29.

³- انظر الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، للأستاذ الدكتور محمد مهر علي، ص 32 (من بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، عام 1425هـ).

⁴- مدخل عام ضمن كتاب الترجمة ونظرياتهما، أبويعرب المرزوقي، بيت الحكمة، تونس، سنة 1989، ص 24 .



مصادره لدى الناشئة الأوروبية، وللجهة التي انطلقت منها هذه الترجمة بداية دلالة واضحة على الهدف، وبالتالي كانت الترجمة وسيلة وسلاحاً في مواجهة الإسلام. ويمكن أن نحمل نتائج ترجمة المستشرقين للقرآن الكريم فيما يلي:

- تشويه صورة الإسلام والطعن في مصادره وعقائده وتشريعه ونبيه صلى الله عليه وسلم، من خلال تأكيدهم على أن القرآن منقول عن الديانة اليهودية والنصرانية، وأنه ليس وحياً من عند الله تعالى، تعددت آراء المستشرقين وتنوعت حول مصدر القرآن الكريم، لكنها تصب في هدف واحد هو نزع صفة القدسية والربانية عن القرآن، فقالوا: أن القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم وأنه تلقاه عن الأولين، وأن محمداً كان عبقرياً، وشخصية فذة، مما مكّنه من كتابة القرآن وتأليفه، وقالوا عن الوحي بأنه عبارة عن حدس يتم فيه الإدراك المباشر، وأنه عبارة عن الإشراق الذي يتم فيه تحويل الأفكار من شخص لآخر، أو أنه عبارة عن مناجاة روح الخداع والحماسة الموجودة في عقل النبي وليست في السماء¹.

وهكذا ألغى المستشرقون صفة الربانية على القرآن الكريم، وأنه كتاب سماوي موحى به من عند الله تعالى، وزعموا أن القرآن مستمد من أعراف وعادات الجاهليين ودياناتهم، وذهبوا إلى أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - اقتبس الأفكار والقصص وغيرها من المواضيع القرآنية من الرسائل السماوية السابقة كاليهودية والنصرانية، ثم عمد إلى ضمها إلى القرآن الكريم، وادّعى أن محمداً صلى الله عليه وسلم، أخذ القرآن، وأصول دينه وأخبار الأنبياء والمرسلين عن الراهب بُحيرا عندما لقيه في الشام، وعن ورقة بن نوفل، وعن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل في مكة المكرمة. فهذا المستشرق الإنجليزي المعاصر ويليام مونتجمري وات ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن ورقة بن نوفل في بداية الدعوة وتأثر بيهود المدينة حين هاجر إليها ومن ذلك قوله : (ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة ولا شك أن المقطع القرآني حين رده محمد قد ذكره بما هو مدين به لورقة... ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمد قد عقد صلات

¹ - آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي، الدكتور/ إدريس حامد محمد، <https://islamhouse.com/ar/books/450166>



مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة¹.

- خلق رأي عام غربي معادي للإسلام والمسلمين بهدف إبعاد الأجيال النصرانية عن الإسلام وحقائقه، والتأثير في صناع القرار الغربي اتجاه العالم الإسلامي، ولا يخفى ما للاستشراق من دور في التشجيع على الحروب الصليبية وإذكاء نارها، والتمهيد له عبر تزويد الفاعل العسكري بالمعلومات الضرورية عن الشعوب والأفراد وعاداتهم وثقافتهم ونقط قوتهم وضعفهم. ولازالت هذه الترجمات والدراسات المغرضة تزود الإعلام الغربي بالمعرفة "الأكاديمية" عن العالم الإسلامي وثقافته، حتى صار هذا الإعلام الغربي الموجه للاستشراق في ثوب جديد، يؤلب الرأي العام الغربي على العالم الإسلامي ويغذي ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب، عبر محللين أكاديميين في مراكز بحث مهتمة بالعالم الإسلامي وتشويه الحقائق وإصاق تهمته الإرهاب بالدين الإسلامي، والإسلام منها برئ.

- تكوين نخبة عربية متغربة: كان للدراسات الاستشراقية عامة أثر بالغ على الفكر العربي المعاصر، وظهر هذا الأثر في كتابات ومؤلفات المثقفين العرب، وفي محاضراتهم وأفكارهم التي صرحوا بها، إما في الجامعات أو المجالات والجرائد المختلفة، حيث تبنا الأطروحات الاستشراقية وشبهاتهم في ما يخص الدراسات العربية عموماً، والدراسات القرآنية خصوصاً. وقد تتلمذ على يد المستشرقين عدد غير قليل من الطلاب العرب في الجامعات الغربية، في أقسام الدراسات الشرقية، وغيرها، وفي الجامعات العربية، فكان هذا الأثر الاستشراقي واضحاً في الفكر العربي، وكان من تجلياته موقفه من قضايا علوم القرآن بما فيها مفهوم الوحي والنص القرآني، والقراءات القرآنية، والنسخ..، ومن يقرأ لهؤلاء المثقفين يجد فكراً استشراقياً حاقداً في ثوب فكر عربي، حيث النظر إلى الذات بعين الآخر ومقصد الآخر..، وصارت هذه النخب العربية تحطب في جبل الغير. إضافة إلى عملية التنصير التي تقوم على تشويه الإسلام والطعن فيه، وتمجيد النصرانية.

¹ - محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت، ص 93

خاتمة :

لا ننكر أن للمستشرقين فضلا كبيرا في تحقيق ونشر الكثير من كتب التراث، وفهرستها وتبويبها. وأنهم تمكنوا من مناهج البحث العلمي الحديثة خاصة منها مناهج البحث في العلوم



الإنسانية، وكانت لهم القدرة على توظيفها وإعمالها في دراسة الثقافة والتراث العربي الإسلامي وكانت لهم طول نفس وصبر على البحث والتنقيب الطويل الشاق. غير أن الخلفية العقيدية والثقافية التي استصحبوها معها أثناء البحث منعت كثيرا منهم من معرفة الحق و اتباعه.

ومسألة الإنجاز المعرفي للاستشراق فيها نظر لأن المصطلحات والمناهج ليست دائما محايدة بل تتأثر بالسياق والبيئة التي نشأت وتخلقت فيها، ولا يجب التعامل مع المناهج والمصطلحات الوافدة علينا من الغرب بمنطق "العثور"، فكثير من المناهج والمصطلحات الاستشراقية مفسخة ومنحازة، ولذلك وجب إيقافها في حدود الأمة الحضارية للسؤال، والتثبت من الهوية، وحسن النية، ودرجة النفع، وتعقبها في مختلف المجالات والتخصصات التي قد تكون عششت فيها، وأباضت أوفرحت بغير حق، فإن سويت وضعيتها، كما يقال، فذاك. وإلا طُهر فكر الأمة منها فإنها رجس¹.

المطلوب من أهل العلم والمعرفة والتربية في العالم العربي والإسلامي، هو تأهيل الجيل الناشئ علميا وروحيا، حتى يكون في مستوى التحديات التي تحيط به، وحتى يتعامل مع الفكر الاستشراقي وما يتبعه من الفكر التغريبي المحلي بعقلية نقدية تأصيلية، تزن الأمور بميزان الحق، فتميز الصواب من الخطأ والحق من الباطل، في الفكر الاستشراقي خاصة، وفي الفكر الإنساني بصفة عامة، وتستفيد من الحق والصواب، أينما وجدته، فتشارك البشرية معارفها، وتتفاعل بإيجابية مع الثقافات الأخرى، بعيد عن السلبية والتقليد، أو التوقع والانطواء على الذات.

لائحة المصادر والمراجع :

1) آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي، إدريس حامد محمد، <https://islamhouse.com>

¹ - انظر: نظرات في المصطلح والمنهج، د الشاهد البوشيخي، مطبعة أنفوبرانت، فاس. ط 1، سنة 2002م. ص 9. بتصرف كبير

- (2) الاستشراق بين الحقيقة والتضليل: مدخل علمي لدراسة الاستشراق. د. إسماعيل علي محمد.
سنة: 1436 هـ - 2014 م.
- (3) بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، عام 1425هـ.
- (4) تاريخ القرآن لنولدكه، ترجمة جورج تامر، بيروت، مؤسسة كونراد - أديناور. ط 1 سنة 2004م
- (5) جلول، فيصل. الجندي المستعرب: سنوات مكسيم رودنسون في لبنان وسوريا (1940-
1947). (ط.2). بيروت-لبنان: دار الفارابي
- (6) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات، عبد الفتاح إسماعيل شلي. مكتبة نهضة
مصر، 1960م.
- (7) الزرقاني، محمد عبد العظيم، 1943م - مناهل العرفان في علوم القرآن. بدون طبعة، دار
إحياء الكتب العربية،
- (8) مجلة دراسات إستشراقية، ع 1
- (9) محمد في مكة، مونتهجيري وات، ترجمة : شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت
- (10) محمد في مكة، مونتهجيري وات، ترجمة : شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت
- (11) مدخل عام ضمن كتاب الترجمة ونظرياتها، أبويعرى المرزوقي، بيت الحكمة، تونس
سنة 1989
- (12) مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تزيهر، بعناية الدكتور عبد الحليم النجار نشر :
مكتبة الخانجي - مكتبة المثنى 1374هـ / 1955م.
- (13) المستشرقون والقرآن الكريم، د. محمد أمين حسن بني عامر.
- (14) المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف-مصر، 1964م.
- (15) مكر المستشرقين في ترجمة الكتاب المبين، علاء إبراهيم عبد الرحيم، مركز سلف
للبحوث والدراسات .

- 16) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 17) نظرات في المصطلح والمنهج، د الشاهد البوشيخي، مطبعة أنفوبرانت، فاس. ط 1 سنة 2002م.
- 18) نقد الخطاب الاستشراقي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت،